

في البدء كان الارتحال: رحالة ليبية منسية

اليوميات المبكرة للرحلات الليبيات وضعت على إثر مغامرات عوائلهن في الهروب من الفاشية

قبل أن يصير الناطق، الاجتماعي، الرامن، المدني، الأيديولوجي، وغير ذلك. وهل لنا نفي أنه في ترحاله القريب والبعيد شكل خبراته، وتكشف معارفه، ووجهها كلما أشبع حواسه بما حوله من الطبيعة، وتواصل مع صنوه الإنسان تارة صديقا، وتارة عدوا يصارعه على المرعى، والأنتنى.

حيوان أيولوجي (نبتشه)، حيوان ميتافيزيقي (شوبنهاور)، فهل يُجان لنا أن نضيف (حيوان رحلي)، كون الخصيصة البشرية في التنقل من مكان إلى آخر كانت عنوانه وبيد عيشه الحياة، توازي الإنسان مع الحيوان مرتحلا بحثا عما يسد رمقه كلاً ومرعى، فهل كان الإنسان حيوانا مرتحلا

لم يكف منظرو الفلسفة والاجتماع متأملين في مقاربة "الإنسان" وتقابله مع من قاسمه العيش المشترك ومن محيطه الأقرب، فوفق معطيات وتعليقات، تبريرية مفرنة، جرى وصف أنه حيوان ناطق / مكاني / اجتماعي / سياسي (أرسطو)، حيوان رامن (كاسيرار)، وحيوان مدني بالطبع (ابن خلدون)،



فاطمة غنود
كاتبة وباحثة ليبية

احتلت الرحلة بين الأسطورة والواقع التدوين، فصل ذلك "الترحال" العام، عن الترحال الخاص، العام مبتداً فعل البشرية، الخاص الذي هو قرار بمحض الإرادة للترحال / الرحالة، في إحالة لما سيسمى تصنيفاً أدب رحلات، وهو أيضاً سيشهد تصنيفاً أو تمييزاً نوعياً، كان نشير بتوصيف السندياد للرحالة (الأسطوري) شاهد الإعجاب والخوارق الطالع من سيرة الف ليلة وليلة، كما من فم المارد، والحوت الأزرق، فيما يصير توصيف ابن بطوطة (المغربي) لرأي العين، والانطباعات ذات الموثوقية، حتى وإن أخطأت تاويل مشاهداتها، ابن بطوطة من سيكتب أن زوجته الهندية رفضت الرحلة معه فطلقها بعد عشرة ثماني سنوات في بلدها، لكنه يحيطها ويحيطنا بزواج مرتحلات لا يفارقن أزواجهن عند السفر.

الرحالة المتشافة

عني التراث العربي والعالمي بأدبيات الرحلة والرحالة، وهيمنت مدونات الرحالة الرجل، وغابت الرحالة، فيما جرى تعليقه بأن الأنثى / المرأة كائن ينحو إلى الاستقرار، وهي الأصل في ذلك مع مبتداً مجتمعات رعوية وزراعية، هو برحل، وهي تستقر، ووسمت بالأرض، والوطن، والبزرة والحاضنة، وأنها الأصل في خلق ودوام الحياة بالمكان، غير أن ما يلفت الانتباه، وي طرح السؤال، لما أشبع أن المرتحل ذكر منفرد دوماً؛ ألم ترافقه امرأته؛ على ذلك هي قسيمه في رحله أيما حل، الانتقال من مكان إلى آخر ظاهرة حياتية ظلت عنواناً لمجتمعات البداوة، فهل انحازت هي للشفاهي كالتصوير السارد (الرواية)، وصار هو المدون، فحفظت لنا تلك المخطوطات والرقن، وذرت الرياح ما باحث به شفاهين، ليست شهرزاد الحكاية مرتحلة ببقاع بغداد، والهند، ومصر، وتجيد وصف أناسها كما ميزاتها عمراناً وثراء وأعاجيب للناظر، هو إن في جانب منه صراع الشفاهي (الأنثوية)، مع الكتابي (الذكورة)، إلى أن يحط على الورق كضمان ومصداقية لأي أثر يتوارث، المرتحل الذي يدخل إضبارة التاريخ وذاكرته، من يدون ويُعلم الآخرين، ومن ارتحل وسكن لن يُعرف برحله، النساء ضمن هذه المعايير والقياس.



خديجة عبدالقادر الشريف من أوائل الرحلات العربيات (غرافيك «الجديد»)

نصيب ولادة، ونشأة، وسني شبابها، من إسطنبول إلى سوريا، ثم الأردن، في بيروت، فمصر وإيطاليا.

رحالة منسية

لكن الرحالة المدونة منتصف القرن المنصرم "خديجة عبد القادر الشريف"، أصيلة طرابلس القديمة، الشابة العشرينية، من سترك طائفة إلى القاهرة مفردة في أول ترحالها عام 1956م، كان محيطها ينظر للمرأة بعين الريبة وكيل التهم، فمع أول عقد استقلال البلاد بجهود واعتراف دوليين، ومغافرة آباء مؤسسين، بان لا رجعة دون وطن موحد الولايات، ومتخلص من هيمنة إدارية استعمارية، حاذتها أوضاع مخلخلة هشة هي ارتدادات، نتاجها شعب تقاذفه المرض والجوع والفقر والامية، وفي رصد لعدد المتعلمين من الذكور في خمسينيات أول الاستقلال (1951) عدوا بضعة عشرات نتاج مدارس محلية وتعليم إيطالي، ولن تعرف ليبيا مؤسسة "الجامعة" حتى مضي سنوات من استقلالها.

في المدونة الرحلية عن ليبيا

تحضر الرحلات في زمن بين قرنين، ولعل اللافت فيما أتيج مما ترجم ولم يترجم، أنهم رحلات مرافقات أو قريبات، ممن عملوا بسلك دبلوماسي سياسي

خديجة ولدت عام 1938م ببيت كان يقطنه وال عثمانى قبل قرن من ولادتها فيه برحاب المدينة القديمة، والداهما التاجر عبدالقادر الشريف، والدتها "فاطمة"، تيمة أشعار ابنها الشاعر المحسد الحدادوي الموسوم في مدونة ببيلوغرافيا الشعراء الليبيين، بشاعر الحب، والشباب، والوردة الحمراء، علي صدقي (اسمه مركب)، المناضل والمحامي، وشخصيته كما شعره آثارا جدلا فهو من حاملي مشعل الخلود وأن لا فناء لشاعر، وهو الذي بدعه ودفعه بل إيمانه بقضية تحرر المرأة من ربقة التقاليد والعزلة سيرتها ورحلها التعليمي والحياتي في كتابها (دروب في الحياة - 2012) فهي ابنته (احلام، وتماضير) نماذج يراعية في مجالات العلم والأدب والعمل المدني.

واسعة من المكان، وصورهن تظهر ملامجهن بوضوح، حين قصت بترجمة بعض من صفحات الكتاب، افقتني الكتابة الشعرية التي وصفت بها ليل الواحة وخبر المياء العذبة، بل إنها كتبت عن اكتشافها لما لم تعرفه قبلا "أن للضفادع إذا ما جمعت معزوفتها التي تؤنس وحدة قمر ليل الواحة".

رحلات الرائدات الليبيات

مفردة الهجرة رحلة وعودة، خصيصة ستجعل من المهاجرات الليبيات رفقة عوائلهن هربا من الفاشية الإيطالية مع مطلع القرن العشرين، علامة تاريخية فارقة لمن برزن كفاعات في تاريخ نهضة النساء، إن سيرجن مؤهلات بالشهادات المتوسطة والعليا من بلدان أتجت فيها فرص التعلم عندما كانت ليبيا تترج تحت احتلال إيطالي في العقد الأول من القرن العشرين، جغرافيتها ساحة معقلات، وإعدام صوري جماعي، ونفي إلى جزر إيطالية وقد مات أغلبهم في البحر، المرتحلات العائدات، الرائدات، كن مؤسسات وداعيات لولوج أبواب العلم والمعرفة، والعمل التخصصي، والمجتمع الأهلي والمدني، المعلمة جميلة الأزمرلي، والمعلمة المسرحية سعاد الحداد عادت من دمشق، صالحة ظافر من المدينة المنورة، ثم روما، تسنى السفر أيضا لبعض من الليبيات في مدن المراكز للدراسة والعمل، ففي عام 1912 كانت الشابة حميدة العنيزي قد التحقت من بنغازي بمعهد المعلمات المسلمات بتركيا قاطعة رحلة مخترت عباب البحر مع والدها، لكن سفرها اللاحق مترددة على مصر في الأربعينات ستقطعه وحيدة، وفي إحداها ستجلب

معلومات لأول مدرسة رسمية للبنات عقب الحرب العالمية الثانية (1946م)، وفي ذات هذا العقد ستقبل فتحية عاشور عائدة من جامعة القاهرة بشهادة في اللغة والأدب الإنجليزي ما سيؤهلها بجدارة لتصير أول مديرة مدرسة بقلب مدينة درنة (شرق ليبيا)، والتي سيذكرها المؤرخ اللبناني نقولا زيادة في رسائل لزوجته مضممة بكتابه "رسائل من برقة" (برقة الولاية التي عمل بها نائب مدير المعارف). ولن ننسى رباب أدهم، وماجدة المبروك اللتين كانت وجهتهما الجامعة الأميركية في بيروت (1958، 1959م)، وستدون رباب سيرتها ورحلها التعليمي والحياتي في كتابها (دروب في الحياة - 2012) فهي ابنة المرتحلين أبا عن جد، ولها منه

ستنتقي زيا منها، وتصير أشهر صورها التي تُعرف العالم بها لتبدو كامرأة عربية، وفي صورها ما يدل على اندماجها في المحيط، وعيشها الواقع بما هو عليه، فما أعجبها أولا مفردات تعلمت نطقها وحفظتها ورددها: تفضل، وكيف حالك، طيب... روزيتا سنطلق مرتحلة وكأنها تحقق مشروع حياتها كرحالة في بلدان أفريقية، وأسيوية وأميركية، وستتوالى كتبها مضممة سيرة رحلاتها تباعا، وستنجز كتابا مختصا عن قصص نساء قابلتهن في مجموع رحلاتها، وستعونه "نساء يدعين جامحات"، وفي أثرها معادل لهن. وكنت في دراسة أنثروبولوجية عن واحة صحراوية بجنوب ليبيا (براك / الشاطي) طالع كتابا بالإيطالية (إلى فرزان) صدر عام 1932 م، لرحالة جابت واحات متعددة والتقطت صوراً مثلت نوار ما التقط لتلك الجغرافيا، بل



الرحالة والكاتبة البريطانية المولعة بالشرق روزيتا فوربس (1890-1967)

أقدمه، وأشهره أيضا، كمرجعية عن جغرافيا محددة هي مدينة طرابلس وضواحيها، "مس تولي" وهي شقيقة القنصل الإنجليزي ريتشارد تولي الذي مارس عمله في ولاية طرابلس، كتابها "عشر سنوات في إيالة طرابلس 1773 - 1783"، بمنته الذي يقارب الخمسة صفحة، يمثل مخزونا أنثروبولوجيا، سوسيوولوجيا، وكشفا لمسكوت عنه، إذ وثقت لأحداث ووقائع هي تفاصيل حكايا صراع بلاط القصر للأسرة القرهمانلي، الولاة من حكموا على التوالي حسن، أحمد، يوسف ووالدهم للأحلوامة، وعلاقتهم بزواجهم، وعالم الجوارى وخدورهن، "تولي" عايشت عادات وتقاليد، ومناسبات المكان أفرحا وأحزاناً، وسجلت رصدها لأوضاع أضرت الحرث والنسل، وسلوكيات أفراد السلطنة، ورجل الشارع، ونساء المدينة القديمة.

أما مدونة رحلة الهولندية السيدة فان فرجيل "ست سنوات في طرابلس على الساحل المغربي (1827 - 1833) فسيتفكّل زوج ابنتها القس بيرك بجمع ونشر ما وثقته في إقامتها رفقة زوجها الدبلوماسي، القنصل الهولندي بطرابلس كليفورد كوك بروجيل، يوميات الأحداث الموصوفة بقلمها دنور نهابة العهد القرهمانلي، وبداية العهد العثماني الثاني، وما تضيفه فإن الهولندية عن مس تولي الإنجليزية، نشرها لتفاصيل العلاقة السياسية بين القناصل الأوروبيين والقصر الحاكم، وأدوار سفارات الدول وتنافسها في مسار تلك العلاقات، ولعل ذلك بسبب مقاربتها لوقائع مست سياسات المرحلة الانتقالية بين عهدين.

رحالة الصحراء الأولى أوروبا كامرأة، الكاتبة الإنجليزية روزيتا فوربس (1890 - 1967) والتي حظي كتابها الأول "سفر الصحراء الكبرى: الكفرة" جنوب شرق ليبيا (1920 - 1921) بأكثر من ترجمة، كان أول رحلها مع زوجها إلى الهند وأستراليا، وبعد انفصالها عنه (1917) خططت للسفر على ظهر جمل، فأنحطت على وجهه أخرى الصحراء الكبرى، مرافقة للرحالة المصري أحمد حسنين باشا، وهي من شهدت أن لأهل الصحراء كرما مفارقا، نمودج ذلك ما درجه ساكنونها على منح فرائش النوم، رفقة الطعام، والشاي، لكل ضيف عابر أو مقيم، ستعتني روزيتا بتدوين العادات والتقاليد، والأطعمة، والملابس التي

مفردة الهجرة رحلة وعودة، خصيصة ستجعل من المهاجرات الليبيات رفقة عوائلهن هربا من الفاشية الإيطالية مع مطلع القرن العشرين، علامة تاريخية فارقة لمن برزن كفاعات في تاريخ نهضة النساء

ولعل الباحث في مدونة الرحلات لن يعدم بالقطع وجود المرأة في مدونات الرحالة خاصة ما تعلق بأدائها شعائر الحج كسيرة رحلة السيدة عائشة ورفيقاتها، أو رحل المهمة والدور السياسي كالحاكمة قوت القلوب، وهي تشار مصر إلى بغداد، وفي العصر الحديث تبرز سائلة بنت سعيد بن سلطان الأميرة (البرنيسيس إميلي روث) التي تزوجت ألمانيا، وكتبت "مذكرات أميرة عربية" في عرض ليوميات ترحالها من زنجبار، إلى إسبانيا، ثم ألمانيا ولندن.

تاء التأنيث تجوب ليبيا

في المدونة الرحلية عن ليبيا تحضر الرحلات في زمن بين قرنين، ولعل اللافت فيما أتيج مما ترجم ولم يترجم، أنهم رحلات مرافقات أو قريبات، ممن عملوا بسلك دبلوماسي سياسي، نمودجهم